في حفل توقيع «حجر الفلاسفة» لحسن طلب:

حجازي يدافع عن التجريب الشكلي وحضور «سبعيني» لم تعرفه الاعوام السابقة

القاهرة ـ «القدس العربي»

من محمود قرني:

في أمسية رمضانية بدار «آفاق» للنشر بشارع قصر العيني وسط القاهرة وقع الشاعر حسن طلب ديوانه الجديد «حجر الفلاسفة» الصادر حديثا عن «مركز المحروسة للنشر والمعلومات».

لم يكن الحضور كثيفا الى حد الكرنفالية لكنه جاء حميما الى حد غير مألوف في واقعنا الثقافي في السنوات الماضية.

حفل التوقيع سهر على رعايته رعاية كاملة، حسبما علمت، الشاعران حلمي سالم وعبدالمنعم رمضان، اللذان يريان أن حسن طلب واحد من أهم الاسماء التي تقدمت جيل السبعينيات، وقد بدا كلاهما في حفل التوقيع مهتما اكبر الاهتمام بأن يخرج بالشكل الذي يليق باسم الشاعر المحتفى به.

وقد جاء على رأس المدعوين الشاعر أحمد عبدالمعطي حجازي، والدكتور أحمد درويش، والفنان عادل السيوي، والشاعر بهاء جاهين، وسعيد توفيق، ونجاة علي وميرال الطحاوي وميسون صقر، وفتحي امبابي ومحمد سليمان ومحمد فريد أبو سعدة وبعض الأسماء الأخرى التي لا تحضرني.

في البداية أطلق الشاعر الكبير أحمد عبدالمعطي حجازي حنجرته المجلجلة المدربة بحنكة وخبرة سبعين عاما وبناء على طلب بعض اصدقائه من الحضور، قرأ قصيدة «زيت الزاج» التي ننقل بعضا منها هنا:

«وكأني عصر الحكام الباعة!
كان رئيس العسكر في صدر المنظر
يظهر طرف مسدسه من سترته
يتقدم أتباعه
وكأني كنت لمحتك فيهم
فالصورة كانت بالكاد
تمت الى بعض البعض
من البعض من الأصل
وتبدو في الظل أقل بهاء ونصاعة!
لكأنك كنت تلوح للناس
براية طه حسين
وتزداد بقفطان الطهطاوي رفاعة!
فعساك الآن ذكرت زمانك
في العلس الأول
حين قسمت الوقت إلى أعوام
والأعوام شهورا
والأشهر أياما
والأيام إلى ساعات
فعكفت لتستأنف
حتى حين وصلت الى جزء الجزء من الجزء من الساعة!
حوصرت بأصوات منكرة، وضجيج يتوالى
كنت تسبح باسم العلم
وكانوا باسم المال «تعالى»!
يفتتحون الحفل على الجمهور بما يقرع أسماعه.
حد الشاعر أن ينثر
حد الناقد أن يهذر
حد الزارع أن يبذر أو لا يبذر
حد مدير المصرف أن يحفظ – إن شاء – المال العام، وإن شاء أضاعه»!

كان هذا جزءا من النص المطول الذي قرأه حجازي تكريما لحسن طلب في سابقة عبر عبدالمنعم رمضان عن امتنانه لها باعتبارها ليست من السلوك المألوف بين الشعراء الذين يتصدرون المشهد الشعري ويقفون موقف الريادة من شعر الأجيال التالية لهم.

ثم بعد ذلك تحدث الدكتور أحمد درويش الناقد والأستاذ بكلية دار العلوم، وأشاد بتجربة حسن طلب، مؤكدا انه في موضع لا بد ان يؤكد من خلاله على الأهمية المعقودة على الغرض الشعري الذي يوسع حسن طلب اطاره بدرجة كبيرة ولافتة واضاف انه يستهجن ما يطلقه بعض الشعراء بين حين وآخر حول ما يتم تسميته بالأغراض الكلاسيكية للشعر العربي مثل المديح والرثاء وقال ان عيون الشعر العربي تمت كتابتها تحت لافتة هذه الأغراض، وإذا ما نزعنا عنها سمتها المرتبط بالمناسبة ستكتشف ان ما تبقى منها شعر عظيم، وكذلك توسع درويش في تناول أهمية الايقاع والوزن في الشعر وهو عادة ما يردد رأيا لا يحيد عنه بأن الشعر بدون وزن وايقاع يضاف فورا الى النثر، دون ان يعني ذلك بالنسبة له حكم قيمة بالسلب أو الايجاب.

بعد ذلك تحدث حلمي سالم عن تأثرات حسن طلب بالحضارة المصرية القديمة، والى ان ما يشي به مشروع حسن طلب هو المرجعية العربية الاسلامية، ذلك يتبدى بالطبع من كونه أحد فقهاء اللغة في جيل السبعينيات وشعره يؤكد هذا المعنى، غير أن ملامح الشخصية والكائن الشعريين ـ حسب حلمي سالم ـ ينحيان معه نحو ملمح مصري سواء عبر الطبقات الحضارية المتراكبة أو عبر الأمثولات والأساطير والمرجعيات المصرية التي تتخلل شعره. ثم انتقل الحديث الى الفنان عادل السيوي الذي رأى أن حسب طلب يكتب الشكل الباروكي، حسب الوصف التشكيلي أي أنه لا يهتم بانصهار الشكل في المضمون ولكنه يظل اهتمامه بالشكل أكبر. واضاف السيوي انه يعترض على هذا الوعي لكنه يحبه على وضعه الراهن، ويقدر الشعرية التي تبلورت من خلاله.

وربما كان ذلك هو ما دعا حجازي الى الرد محاولا البعد بالتجريب الشعري عن التجريب التشكيلي، ودافع عن الشكل الأقنومي للغة التي لا بد أن نتفق على حدودها الدنيا الاصطلاحية حتى نعثر على لغة مشتركة.

بعد ذلك طلب الى كاتب هذه السطور إلقاء كلمة تمثيلا للأجيال الجديدة، فبدأت من حيث كوني غير مخول بالحديث نيابة عن أحد لكنني أتحدث بالأصالة عن نفسي، وكنت معنيا بإزالة التباس دام طويلا فحواه أن الأجيال الجديدة من الشعراء ينفون ويرفضون كل الشعر المكتوب قبلهم، ويتبدى ذلك بشكل أكبر لدى شعراء قصيدة النثر، وهو تصور غير صحيح بالمطلق، لأن بعض هؤلاء، وأنا واحد منهم، بدأ من أكثر الأشكال الشعرية تقليدية وهو الشكل العمودي ثم التفعيلي نهاية بقصيدة النثر، وتظل المرجعية الشعرية متواصلة بقوة التاريخ وأصالة التكوين الى المنابع الأولى.

في هذا الاطار تبدو من الأمور المألوفة أن يعاود المرء قراءة أكثر المدونات كلاسيكية بين وقت وآخر وكذلك بالطبع قراءة واحترام النصوص المعاصرة والمجايلة في الوقت نفسه، وذلك من منطلق أخير هو أن الشعر ابن الطبقات الحضارية المتراكمة التي يندر ويستحيل حصرها في وعي أفقي رجراج، بل هي تعبر عن نفسها لدى الشعراء الموهوبين بشكل جازم وقاطع، لا يقيم اعتبارا للشكل، باعتباره أمرا لا يؤثر في موضوع الشعرية ولا قيمتها. من هنا كان دفاعي عن شعرية حسن طلب المحتمية بدرجة من الأصالة النادرة والمحتمية أيضا بالشعرية العربية في أقصى تجلياتها كلاسيكية من حيث الشكل لكنها في الوقت نفسه لا يمكن التعامل معها ـ في حد ما قاله عادل السيوي على استقامته ـ باعتبارها منجزا كلاسيكيا فحسن طلب أحد الأبناء المخلصين للمشروع الريادي العربي وبالتالي حقبة الحداثة العربية المرتبطة بنهوض الدولة القومية، لذلك سنجد اقتراحاته الشكلية لا تخلو – في معظم دواوينه – من اقتراحات مضمونية غير مسبوقة تنأى به عن كل التوصيفات السلفية، ويتبدى ذلك بشكل عميق في دواوينه الأولى وأبرزها «آية جيم»، و«سيرة البنفسج».

وقد اختتم حفل التوقيع بقرار حسن طلب لقصيدة قصيرة ننقل منها هذا المقطع:

«ربما المصادفات وحدها
هي التي أوصت إليَّ الآن
أن أبحث في اللفظة
عن إكسيرها المفترض
الذي به تنصهر الحلية في البنية
عن شاهد
أشم من خلاله طزاجة الأشياء
في الأسماء والضمائر!
في ذات الوقت الذي أوحت
إليك فيه
أن تبحث في الخلية الحية
عن شاهد
يضيء وجه العملة الآخر!
لعلها المصادفات
أو إذا أردت قل: «هي النية
لعله قد وقع الحافر يا أخي
على الحافر
لعله توارد الخواطر!

وقد أصدر حسن طلب حتى الآن قرابة تسعة دواوين بدأها بديوان «وشم على نهدي فتاة» عام 1972 ثم «سيرة البنفسج» عام 1980، زمان الزبرجد، آية جيم عام 1992، لا نيل إلا النيل، 1993، بستان السنابل، مختارات، مواقف أبي علي وديوان رسائله، 2002، وأخيرا «حجر الفلاسفة»، كذلك أصدر حسن طلب كتابين في الفلسفة هما «المقدس والجميل» عام 2001 و«أصل الفلسفة» عام 2003 وهو حاليا أستاذ متفرغ للفلسفة بجامعة حلوان.

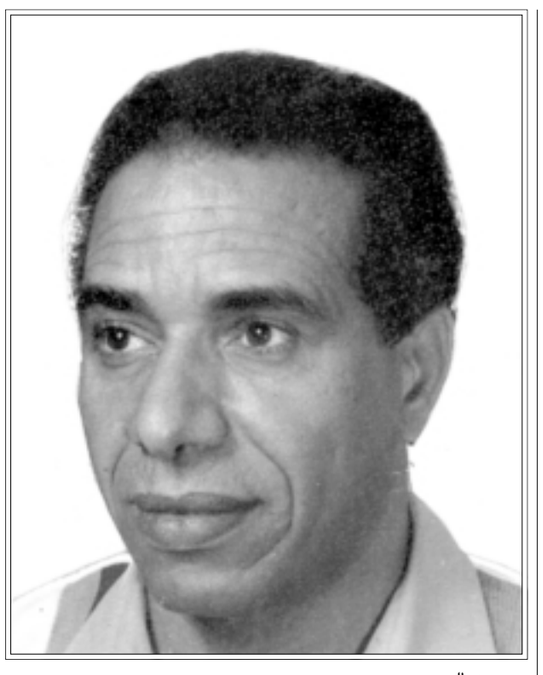

حسن طلب

احمد عبد المعطي حجازي

البكباشيُ طويلُ العنق: ستةٌ وثلاثون عاما على رحيل جمال

فاطمة ناعوت *

■ ستُ سنوات وعشرةُ أيام بالتمام والكمال كانت كل رصيدي من الحياة حين مات جمال عبد الناصر يوم 28 ايلول (سبتمبر) 1970. كنت في مشارف العام الثاني الابتدائي ولم تكن علاقتي به وقتئذ تتعدى صورة مستديرة صغيرة جدا بقطر 5مم تحمل وجه «بابا جمال»، تتوسط قلبَ نسرٍ بلاستيكيٍ ملون في ظهره دبوسٌ صغير معقوف تشبكه ليَ المعلمة في صدر الماريول لأنني طلعت الأولى على الفصل في مدرستي «كلية البنات القبطية CGC». لونُ النسر يحدد درجة التفوق، فالأزرق يعني الترتيب الأول والأحمر يعني الثاني والأصفر يعني الثالث. وكنت أنتظر بشغف يوم ظهور نتيجة الامتحان كل شهر كي أحصد «نيشانا» جديدا يحمل صورة ناصر. وكان أن امتلأ درج مكتبي بالكثير من النسور والكثير من ناصر! هذه علاقتي الخاصة به، أما العامة فكانت صورته الشهيرة بوجهه المصري الحاسم الوسيم فوق جدران فصولنا وبيوتنا ومؤسساتنا وقلوبنا أيضا. كان محبوبا وصورته تتصدر حياتنا من هذا المنطلق وليس سواه. فقط يكفي أن يمر موكب الرئيس من أمام بيتنا في العباسية بسيارته الكابورليه المكشوفة حتى يهرع الناس من بيوتهم نساء ورجالا وأطفالا وشيوخا، أسيادا وخدما وبوابين وطهاة، ليصطفوا على جانبي الطريق كي يتلقوا تلويحته الشهيرة لهم. أحبَ ناصرُ الشعبَ والعروبةَ وفكرةَ القومية فأحبه الجميعُ. وليس أدلَ على ذلك الإجماع الجماهيري العروبي لناصر، الذي مُنح له على كارت بلانش دون قيد أو شرط، على الرغم من بعض السلبيات التي شابت التجربة الناصرية، سوى مظاهرات 9 و 10 حزيران (يونيو) عام 1967، تلك التي شارك فيها الملايين من الشعب المصري والعربي رافضين استقالته من منصبه كرئيس مصر، عقب هزيمتنا العسكرية في حزيران (يونيو) الأسود، وكذلك: «نقول «لا» لجمال عبد الناصر»، وهو البيان الذي أصدره مجلس الشعب المصري لرفض تنحي الزعيم والأب الروحي للشعب حيث قالت لطيفة الزيات: لا يحق لأحد كان، أن ييتم شعبا بأسره! حتى الملوك والرؤساء العرب ممن كانوا على خلاف مع ناصر ومع تجربته لم يكن في وسعهم سوى اتخاذ الموقف الذي ينسجم والمطلب الشعبي العام لجماهير العرب فانخرطوا بدورهم ضمن حشود الملايين المتظاهرة بشأن مطالبته بالتراجع عن فكرة التنحي التي أعلنها في خطابه التاريخيَ الأشهر. حتى ان المحللين السياسيين وجدوا في تلك التظاهرات الجماعية «الإجماعية» استفتاء شعبياً حقيقيا ورسميًا على ناصر ومشروعه. واعتبروا أن ذلك الاحتشاد التلقائيَ غير المرتب له من الملايين المُجمْعة على ناصر بمثابة تجديد للثقة والبيعة له. وكأن لسانَ حالهم يقول إن ناصر أكبرُ من «النكسة» (كانت هذه كنيتها الرسمية كما أسماها الساسةُ والمحللون العسكريون آنئذ، ولم تبدأ في أخذ كنيتها الحقيقية الأدق كهزيمة عسكرية حقيقية إلا بعد ذلك بكثير). وسرعان ما استجاب ناصر للمطلب العام وشرع من فوره في تدشين مقاومة مسلحة ضد العدوان، ومن ثم حرب الاستنزاف. وتأكد ذاتُ الإجماع على ناصر، كشخص وكزعيم، يوم جنازته في الأول من تشرين الاول (أكتوبر) عام 1970، تلك التي شارك فيها عشرات الملايين من المصريين والعرب، وهو ما دعا صحيفة ألمانية لأن تصف جنازة جمال عبد الناصر بأنها موكبٌ جنائزيٌ لم يحدث مع جنكيز خان أو لينين أو أتاتورك أو غاندي أو كنيدي، وانها أكبر جنازة شهدها التاريخ. وكنتُ مثل جل المصريين والعرب مبهورة بنموذج بابا جمال، كما كنا ندعوه، ولم يَشُبْ حبي له شائبةٌ إلا بعدما شبَّ وعيي لأبدأ مرحلة تقييم العالم من حولي، فكان أن رحت أرصد أخطاءه وأخطاء الثورة وثغرات الدستور المصري. سوى أن حبي لجمال عبد الناصر ظلَّ حباً رغم كل شيء. حبٌ معاتبٌ، أو عتبٌ محبٌ. حبٌ ملتبس، وهو بظني درجةٌ أرقى مرتبة وأرفع من الحب الصافي أحادي اللون. أعلمُ تماما ما قدمه ناصر لبلادي وللعروبة وللقومية، حلمه الموؤود. أعلم. لكن. هل أغفر اتخاذها من الاشتراكية العلمية شعارا واسما براقا من دون انتهاج حقيقيَ لنهجها الفكري والاجتماعي والاقتصادي؟ فلا ملكية عامة لوسائل الإنتاج ولا دكتاتورية بروليتاريا ولا تصفية فعلية لعلاقات الإنتاج الرأسماليَ، ما أنتج في الأخير رأسمالية دولة وليسَ اشتراكية صحيةً كما أنتجتها بلادُها. والآن ضاع من بين أيدينا الأمران، فلا حياةَ حزبية حقيقة نحياها ولا عدالةَ اجتماعية حقيقية. هل أغفر للثورة طابعها «العسكرياتري» – المصطلح من ابتكار المؤرخ صلاح عيسى – الذي عالجت به اختلافاتها الفكرية مع المثقفين، ممن كانت لهم تحفظات على مبادئ الثورة، بالقمع والاعتقال مثلما حدث مع شيوعيي مصر عام 1995؟ وأما الذي مستحيلٌ أن أفهمه فضلا عن أن أغفره فهو البند العنصري العجيب في الدستور المصري الذي ينص على إسلامية الدولة المصرية، بما يعني أن كل مسيحيٍ في مصر هو مواطن من الدرجة الثانية! هالني، أول أمس، حين طالعتُ كتاب الفلسفة الخاص بابني في الصف الأول الثانوي في درس حول «الفلسفة والدين». فيما يشرحون أن الفلسفة لا تتعارض مع الدين لكنهما كليهما يبحثان عن الحقيقة، والدليل هو: ثم استشهادات من القرآن، وحسب. وكأن (الدين) في إطلاقه يعني الإسلام! وهذه مقولة إسلامية طبعا: «إن الدين عند الله الإسلام»، لكن هل يجوز لنا أن ندلل على شيء بدليل من داخله؟ هذه المقولة القرآنية يفهمها المسلمون، لكن هل يفهمها المسيحي أو اليهودي؟ مصرُ بلدٌ إسلاميٌ؟ طيب ماذا عن خمسة عشر مليون مسيحي أي أكثر من 10 % من مواطني مصر هم مسيحيون؟! وكانت نسبتهم عام 1975 حسب الإحصاءات الرسمية 18 % من سكان مصر. فماذا عنهم وهم سكان البلد الأصليون؟ ثم هل يحق لنا بعد ذلك أن نندهش من الفتن ومشكلات الأقليات؟ كيف سمحنا لأنفسنا بالتطور إلى الوراء؟ ولدستورنا أن يتقهقر إلى ما وراء الصفر فيقصي بعض مواطنيه بسبب عقيدتهم بعدما رفع سعد زغلول والمصريون عام 1919 شعارا رفيعا يقول: «الدين لله والوطن للجميع». هذا رغم أن ثورة يوليو قد أنجزت مهمة رائعة بتحويل الأزهر إلى جامعة مدنية علمانية ما وشى برغبة الثورة في إشاعة الطابع العصري في البلاد. أم هل أغفر في الأخير ما نجنيه اليوم من تدني مستوى الوعي العام لدى المواطن المصري جراء رغبته، الحقيقية، في شيوع التعليم كحق مجاني لكل مصري كالماء والهواء مثلما ذهب طه حسين؟ لكن أي تعليم أنتجته المجانية؟ وأي مستوى من خريجي الجامعات المصرية نراه الآن؟ وربما تأكيدي على «معاتباتي» على ناصر يحمل، ضمنا، «امتناناتي» له من جانبها الآخر، سوى أن المجال يضيق عن سرد منجزات هذا العظيم لأنها أجلى من أن نتكلم عنها الآن. ففي عهده أنشئت أول وزارة للثقافة عام 1958، وتلتها من بعد العديد من المؤسسات الثقافية الكبرى مثل هيئة المسرح والهيئة العامة للكتاب وهيئة السينما وأكاديمية الفنون وغيرها. وازدهرت في عصره حركة الترجمة والنشر ومثالنا «سلسلة الألف كتاب» وغيرها من المنجزات الرفيعة التي لم نستطع للأسف المحافظة عليها كليّة بسبب انهيار قيمة الثقافة والمثقف في زماننا الراهن. كان، ويظل، جمال عبد الناصر بالفعل جديرا ومستحقا لهذا الإجماع العربي عليه. والآن تحديدا، بعد ما حملته لنا الثلاثة عقود الماضية، بوسعنا أن نقدّر أكثر قيمته وعروبيته وثراء مشروعه، ولو خاب التطبيق، شأنه شأن كل المشروعات الكبرى التي تحول الحياةُ دون تحقيقها على النحو الأمثل. ثم اكتشفت حبٌ الشعب اليمني لناصر، الأدق إكبارهم وتقديسهم له. كنت في أمسية شعرية بصنعاء عام 2004، وألقيت قصيدتي «المتعَب» حيث سطر فيها يقول: «ثَمّ سبيلٌ للنجاة/ بغير الحاجة إلى البرابرة/ أو البكباشيّ طويل العنق»، فسرت في القاعة همهمةٌ صاخبة عند هذا المقطع تحديدا لم أفهمها في حينها. علي أنني بعدما نزلت عن المنصة لامني بعضٌ كثيرٌ من أصدقائي اليمنيين لأنني أهاجم ناصر! فرددت أن قصيدتي لم تهاجمه ولم تمدحه، بل تعالج فكرة «الانتظار»، سواء انتظار المُخلّص الآتي بالرغد والسعادة كناصر، أو الخوف من انتظار البرابرة الآتين بالويل والخراب كالأمريكان، وأما قصيدتي فتناهض هؤلاء وهؤلاء. هؤلاء المنتظرين أبدا، لأنهم «المتعَبون» بالانتظار السرمديّ لذي لا يجيء. ذاك أن ما ننتظره، خيرا كان أو شرا، موجودٌ داخلنا نحن، داخل أنفسنا وأرواحنا وأدمغتنا. وبوسعنا، بشيء من إعمال الطاقة الروحية، أن نستحضره من عمق ذواتنا. لم يقتنع أحد بكل «سفسطتي» طبعا ونصحني الناصحون ألا ألقي هذه القصيدة في جامعة عدن غدا كيلا أرمى بالحجارة. لكن كاريزما ناصر لم تتوقف عند الحدود العربية بل تجاوزتها على نحو فائق إلى مدى أرحب عبر العالم بأسره. يوم وفاة ناصر كانت تُجرى لي جراحة استئصال اللوزتين في مستشفى «مورو» بحي الدقي القاهري، وهو مشفى أجنبي جلُ طاقمه الطبيَ وجل مرضاه من الجاليات الأوروبية في القاهرة. كنت للتوّ قد أفقت من المخدر وحولي جدي وجدتي وأمي وأبي. جدي جلب لي من الحجاز مسبحة فسفورية. وضعها بين كفيه وأغلقهما وفرّج بين أصابعه فرجة جعلني أنظر منها. كانت حباتُ الخرز تضيءُ بنور أخضر مشع. واعتبرتُ هذا شيئا من السحر. وفجأة، وفي غمرة نشوتي بالهدية الثمينة، وجدت الجميعَ يركض من حولي، ماما وبابا وجدي وجدتي وكل السيسترز والأطباء والمرضى. لم يعد هناك أحد. وخلا العالم إلا مني. خرجت أتعثر في ثوبي وقد تملكني الرعب وحيدة في المبنى الضخم. تهالكت على الدرَج ورحت أبكي. بعد برهة وجدت الجميع يعود بين باكٍ وواجمٍ والأسى يكسو الوجوه. احتضنني جدي وحكى لي معنى أن يموت الزعيم. بابا جمال ذهب عند الله؟! لتكون هذه أول حادثة موت أصطدم بها وتصطدم بي. وتكون أيضا أول ارتباكة تواجه شعب مصر: من بوسعه الآن أن يملأ ذلك الفراغ، الذي تركه جمال عبد الناصر؟

* شاعرة مصرية

قـــص

عازف الأرغول (أبوحسن)

رشاد أبوشاور

متى رأيته وأين في المرّة الأولى؟

لا أستطيع تحديد الزمان والمكان، ولكنني تعلّقت به منذ سمعته يعزف على أرغوله. يخرج قصبات أرغوله من جيب صدر، ويدخلها المبسمين الرقيقين في القصبتين المشدودتين لبعضهما، ويأخذ في العزف دائراً حول نفسه كما لو أنه درويش يؤدّي رقصة (الميلويّة)، ثمّ يلوّح بيده اليسرى وأصابع يده اليمنى تلعب على ثقوب أرغوله، وكأن أصابع يده تنادي دبيكة يتخيلهم، أو يستدعيهم من الذاكرة، ثمّ ينهي وصلته بالجلوس صامتاً وفي عينيه دمعات جمدت...

يدس يده في جيبه، ويفتح قبضته فإذا بها مليئة بكمشة ملبّس على نعنع، يوزّع الحبّات على الحضور، ويسرّب واحدة في فمه الأدرد، هازاً رأسه مع تنهيدة، ثمّ يطوي جسده ويغمض عينيه، ويستند بظهره إلى الجدار إن كنّا نتحلّق حوله في الشارع، أو يريحه على مسند الكرسي إن كان في أحد المكاتب، مادّاً ساقيه قليلاً، مطقطقاً عظامه، متنهداً، ثمّ يغرق في الصمت آخذاً قسطاً من الراحة بعد أن نفخ أنغامه في أرغوله، وأبسط (الشباب)، ورقّص بعض المولعين بالدبكة، وانتزع إعجاب حتى المسؤولين الوقورين الذين يبدون تحفظاً خاصة وهم في حضرة مرافقيهم الذين كانوا فدائيين في (القواعد) قبل أن يؤتى بهم إلى (الفاكهاني) ليحرسوهم، ويقضوا حاجات أسرهم البيتيّة.

سمعته يقول بأنه من مخيّم (خان الشيخ) وأنه يعبر الحدود السوريّة اللبنانيّة عن الطريق العسكري ـ طريق الفدائيين ـ باحثاً عن ابنه الذي اختفى فجأةً، ووصلهم خبر التحاقه بالفدائيين في قواعد جنوب لبنان.

هو أبو حسن ولا شيء آخر، ولو فكّرت في سؤاله عن بلده الأصلي، واسم عائلته فإنه يتناوم، أو يمد أصابعه البنيّة الغامقة المكرمشة الجلد، ويعرض عليك حبّة حلو منعنعة تعطّر بها فمك، أو قد يعن على باله إن كان مزاجه رائقاً أن يلتقم مبسمي أرغوله ويأخذ في التقسيم الترتيلي الذي يحرك المشاعر فيشجي، ويهيّج ذكريات الحاضرين منتزعاً من صدورهم الآهات، والدهشة من عيونهم الشاخصة إلى أصابعه الرشيقة ولغديه المنفوخين.

هو اليوم هنا في بيروت، تراه أمام بناية (الإعلام الموحّد)، ربّما يتبادل الحديث الفكه مع (ماجد أبوشرار)، أو يتوجّه إلى مقهى (أم نبيل) ليأخذ فنجان قهوة مستجيباً لدعوات ملحاحة من مثقفين لا يخفون استطرافهم لشخصه وحنينهم لآباء يشبهونه لم يروهم منذ سنين، رافضاً بتاتاً أن يعزف وهو في المقهى، رغم الرجاءات والإلحاحات من شباب فلسطينيين يريدون أن يتباهوا به أمام اللبنانيين، والعراقيين، والسوريين، وبعض الضيوف الأجانب الذين يحضرون من بلاد بعيدة إعراباً عن تضامنهم مع (الثورة الفلسطينيّة)...

صديقي رسمي يعلّق وهو يميل رأسه:

ـ هذا العجوز أفّاق، إنه يتسلّى، أنا لا أصدّق أن له إبناً فدائياً، وأنه تائه عنه ولا يعرف شيئاً عن ابنه ذاك، وأنه يبحث عنه في قواعد الفدائيين.

أردّ عليه عادةً:

ـ ولكنه لم يطلب تسجيل اسم ابنه في أسر الشهداء، وهو عف النفس فلا نسمعه يسأل أحداً مساعدته، وهو لا يأخذ مالاً على عزفه، فقط يأكل لقمات قليلة عندما يجوع ...

ـ لأنه لا ابن له استشهد...

ـ ربما ما زال ابنه حيّاً. الرجل يعيش على الأمل.. أتنفر منه يا صاح؟!

أسأله بشيء من الفصحى التي يميل للتحدّث بها أحياناً، سخريةً، أو تعمّقاً، أو كما نقول: تثاقفاً...

أغمض رسمي عينيه كما يفعل عادة عندما يتريّث في التعبير عن فكرة راودت عقله:

ـ إنه يتسلّى، إنه موسيقي شعبي كبير، وهو إلى ذلك ساخر كبير، إنه يسخر من الدنيا، يتعامل معها كعرس عابر، عرس غير دائم، عرس يتخلل حالة موت وحزن دائمين، رجل يعرف كيف يكسر الملل من الحياة...

ـ يمكنه أن يتسلّى في بيته، أو في الأعراس، ويحصل على شيء من المال يعين به نفسه على مشقّة الحياة!

تمر سيارة فدائيّة، يلوّح له شاب يجلس بجوار السائق، ويدعوه للذهاب معه إلى (صيدا)، فيهب أبوحسن قبل أن يكمل فنجان قهوته، مثيراً ضحك رسمي وتعليقاته الطريفة.

ـ جاكيته لا تتغيّر، واسعة وبالية ونظيفة وإن كنت لا أعرف متى يغسلها. يبدو أن جاكته كانت بنيّة بخطوط بيضاء، وحالت الخطوط البيضاء إلى صفراء معتمة متماهية مع اللون البنّي الذي بهت مع الزمن. يبدو أنه يرتدي جاكتته منذ الخمسينات، أقصد من أيّام توزيع (البقج) علينا أول الهجرة، هل تتذكّر أيام (البقج)؟!..

يضحك مضيفاً:

ـ مخلوق بالي المظهر، لكنه طريف، وعزفه لا كلام عليه، أنا لم استمع لعازف أرغول بهذه البراعة والشجن والطرب. مخلوق بال غني الروح، لعلّه آخر عازفي الأرغول من بني جلدتنا.

يضحك مميلاً رأسه على كتفه الأيمن:

ـ يستحق أن يوضع في متحف للفنون الشعبيّة، نحنّطه، ونعلّق على صدره قارمة مكتوب عليها: عازف أرغول فلسطيني من القرن العشرين، من الأسرة الأخيرة لعازفي الأرغول...

سألته مسترسلاً مع جموح خياله:

ـ ولكن كيف مات، وأين، وكيف بقي محتفظاً بجسده سليماً؟ أكانت ميتته طبيعيّة، أم انه استشهد في إحدى القواعد التي قصفت بينما كان يبحث عن ابنه الفدائي الذي ترك الدراسة في جامعة دمشق ـ كما يدّعي هو ـ و..؟! رسمي!.. خلقت لنا مشكلة، فنحن لا نملك وطناً، فمن أين لنا أن نؤسس متحفاً؟!.

كنت أجلس مع رسمي في مقهى (أم نبيل) غارقين في حالة حزن بعد قصف بعض القواعد الفدائيّة في الجنوب.

كنّا قلقين على العازف العجوز الذي توجّه في سيّارة عسكريّة أمس إلى القواعد في منطقة (النبطيّة) حيث وقعت الغارات، وسقط شهداء وجرحى...

كالعادة فاجأنا بظهوره على الرصيف قرب (دوّار الكولا)، وهو يعزف ماشياً حتى بلغ مكتبة (دار الطليعة) ليتوقّف ملوّحاً بيده اليسرى بينما أصابع يده اليمنى تلعب على الثقوب منغّمةً ألحاناً تنادي (الشباب) ليحضروا، وفي لمح البرق يلتف حوله فدائيون يحرسون المكاتب ملبين أنغامه وتلويحات يده...

تساءل رسمي وهو يبرم وجهه على عادته عندما يبدي دهشته من أمر ما يستثيره:

ـ ما هذا الجنون الفلسطيني يا صاح؟!

ـ سرياليّة فلسطينيّة يا صاح، لامعقول فلسطيني مبهج...

تركت رسمي في المقهى وتوجهت إلى حيث (أبوحسن) الذي باتت بيني وبينه مودّة:

ـ ها، ملصت من الطائرات في الجنوب، إلى أين ستتجه؟

ـ بعد ما انثيّع (نشيّع) الجنازات (الجنازات) لمقبرة الشهداء (الشهداء) تأتجه إلى الثمال (سأتجه إلى الشمال) ، فابني لو سمع عذفي (عزفي) سيحضر ولن يختبئ ويختفي عنّي. أنا لا أعترض على أن يثير (يصير) فدائيّاً، وكل ما في الأمر أنني أريده أن ينهي دراثته (دراسته)، ويثير مهندثاً(ويصير مهندساً) !..أأنا غلطان يا ابن أخي؟ (هو يخاطب الكبار عمراً بابن أخي، أمّا الشباب فيخاطبهم يابا، فكلّ واحد منهم عنده هو بمثابة ابن له).

وقبل أن أجيبه، أطلقت سيّارة جيب عسكرية منبهها، ولوّح له نفس الشاب الذي رأيناه أكثر من مرّة يصطحبه من الفاكهاني إلى حيث قواعد الفدائيين في الجنوب والشمال والبقاع .

تنبّهت على صوت رسمي، وأنا أعود لآخذ مكاني في المقهى الرصيفي الذي يمكّن الجالس فيه من رؤية أي عابر في الشوارع المتقاطعة حول جامعة (بيروت العربيّة):

ـ اكتشفت لعبة العجوز وابنه. وجدتها، وجدتها ! الذي ينقلّه إلى القواعد هو ابنه، إنهما أفاقان..ما رأيك في استنتاجي هذا؟!

نقلّت نظراتي بين سيارة الجيب العسكريّة التي توارت، وملامح وجه رسمي المندهشة الساخرة، ووجدتني أنفجر بضحكة مجلجلة دون تعليق، منتظراً مفاجأةً جديدة من مفاجآت أبوحسن، ووصلة من عزفه على أرغوله التي تمنح الحياة في (الفاكهاني) ألفةً وطرافةً...

ستكون خسارة لو أن (أبوحسن) وجد ابنه واقتاده معه إلى دمشق الشام، ليعيده إلى الجامعة. من سيعزف لنا عندئذ، ومن يرقّص الدبيكة الشباب، ومن يثير دهشة صديقي رسمي؟!

تنويه: هذه واحدة من حزمة قصص عن عازفي الأرغول، الذين عرفت بعضهم مباشرة وطربت لعزفهم، وسعدت واستمتعت بالدبكات التي امتدت بفضلهم في ليال خلت، وهم ينحنون على آراغيلهم، ويدورون في الساحات، ينفخون من صدور تدرّبت طويلاً على النفس الطويل وتحويله إلى أنغام راقصة في ليالي الأعراس الصيفيّة القمريّة ـ خاصّةً في مخيمات (أريحا) ـ الحزينة المتفجعة عندما يكون واحدهم في حالة حزن وشعور بالوحدة، أو عندما يمضّه الحنين لمن رحلوا من أحبابه، أو تدهمه ذكريات أيام البلاد قبل نكبة الـ48...